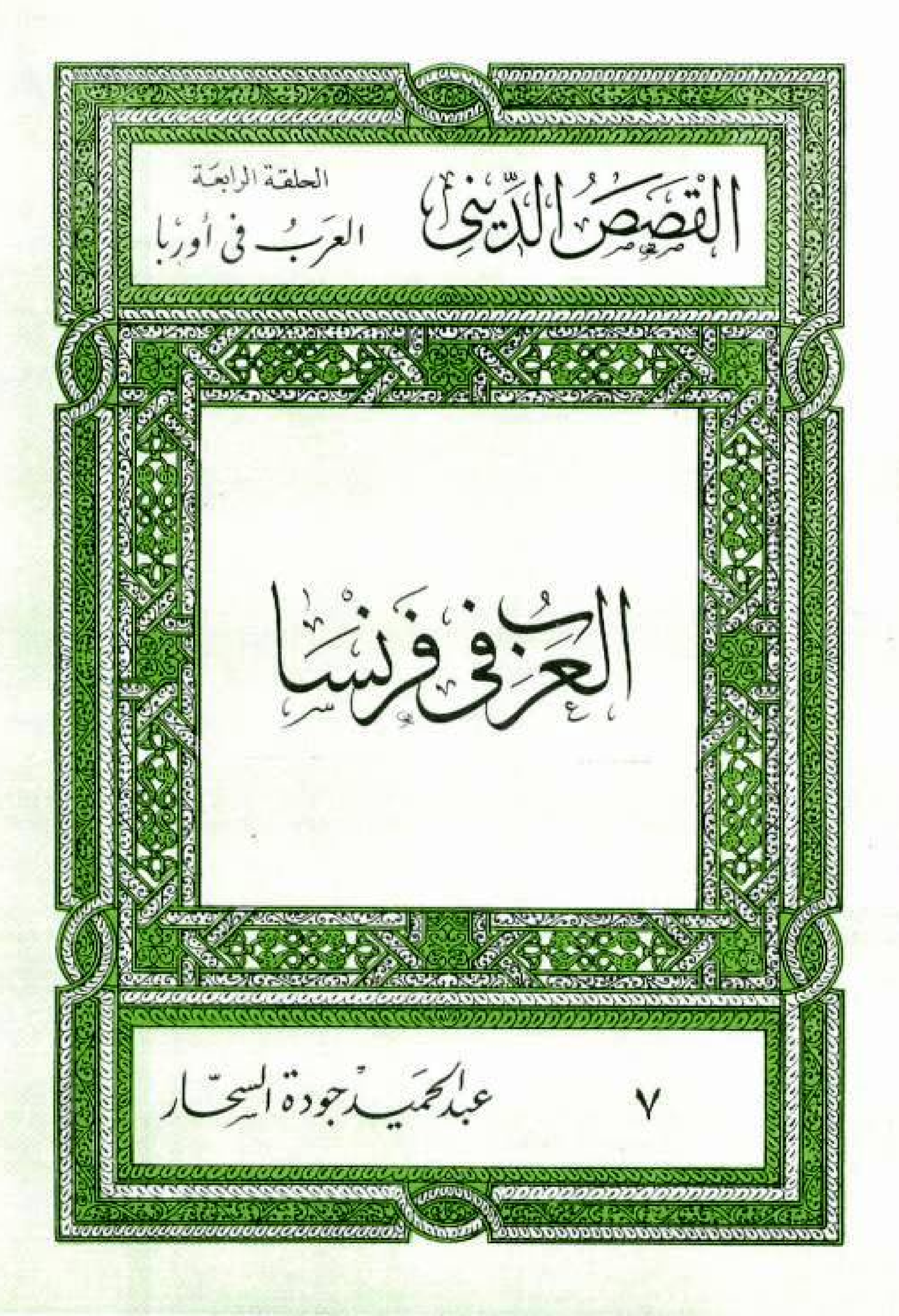

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
العرب في فرنسا
٧
عبد الحميد جودة السحار

١

لم يكتفِ سُلَيمانُ بنُ عبدِ المَلكِ بنكبَـةِ موسى فى شخصِه ، حتّى نكبَ جَمِيـعَ أولادِه ؛ فأمَرَ محمَّدَ بنَ يزيد ، أميرَ إفريقيَّة ، بأخْذِ عبـد اللّـه بـنِ موسى بنِ نُصَير ، وتعْذِيبِـه ، واستئصالِ أموالِ بنى موسى ؛ فسجنَه محمَّدٌ وعَذّبَه ، ثم قَتَله . ولم يَعِشْ سُليمانُ بنُ عبدِ الملك بعدَ ذلـك طويـلا ، ولم ينعَـم بـالمُلكِ ورَفاهِيَتِـه ، فقـد مـات شابـًّا ، وأصبَـحَ عمـرُ بـنُ عبد العزيزِ أميرَ المؤمنين .

كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يرى أنَّ خُطُوطَ المسلمينَ قد امتدَّت ، وكان رأيُه انتقـالَ الغُزاةِ الّذيـنَ فتحُـوا الأَندُلُسَ منها ، لانقطاعِهم عن المسـلمين ؛ ولكـنْ لم يُصادِفْ ذلك الرَّأىُ قَبولا ، فكيف يترُكُ المنتَصـرونَ

أرضًا قد فَتحَها اللّهُ عليهم ، هى الجنّاتُ التى وعدَ اللّهُ بها المُتّقِين ؟

وَلِىَ إمْرَةَ الأندلسِ السَّمْحُ بنُ مالكٍ الخَولانِىّ ، وأمَرَه الخليفةُ عمرُ بأن يُخَمِّسَ الأراضِى ، ويُخرِجَ منها ما كان عَنوة ، خُمسًا للّهِ من أرضِها وعِقَارِها ، ويُقِرَّ القُرى فى أيدى غُنّامِها ، بعد أن يأخُذَ الخُمس ، وأمرَه بأن يكتُبَ إليه بصفةِ الأندلُسِ وأنهارِها .

كان السَّمْحُ مُدبِّرًا حكيما ، وقائدًا باسِلا ، وسِياسيًّا حازِما ، رأى أنّ عَصبيَّةَ العربِ لا زالت تَسُودُ الأندلس ؛ فالمُشاحَناتُ قائمةٌ بينَ اليَمَنِيَّةِ والمُضَريَّة ، والقِتالُ دائرٌ بين الشَّاميين والبربر ، وأنّ المَسيحِيِّينَ المنهزمينَ قد كوَّنوا فى شَمالِ الأندلسِ عِصابة ، وكانوا ذوى بأس شديد ، فثارُوا بالعربِ ثورَةَ الأسودِ ، وأبَوا إلاّ الدِّفاعَ عن دينِهم ووطنِهم ؛

فرأى أن يسوسَ مملكتَه الفائزةَ بالحزْم .

كان عمرُ بنُ عبد العزيزِ شديدَ الخوفِ على الإِسلام ، فَهالَه بقاءُ ذلك العَدَدِ الكبيرِ من المسيحيّينَ في تلك البلاد ، واستشعَرَ من بقائِهم بين أظهُرِ المسلمينَ خطرًا شديدا ، فكتبَ إلى السَّمْحِ بإِجْلاءِ مَسِيحِيِّي إسبانيا وجنوبِ فرنسا إلى إفريقِيَّة ، حيثُ لا يكونُ من وجودِهم خَطرٌ على الدَّولةِ النَّاشِئَة .

فكتَبَ السَّمحُ إلى أميرِ المؤمنين ، عمرَ بنِ عبد العزيز :

« إنَّ الإِسلامَ ينمُو وينتشِر ، وتمتَدُّ شَمارِيخُه في الأندلس ، وسرعانَ ما تَدينُ هذه البِلادُ جميعُها بدينِ الإِسلام » .

ورأى السَّمحُ بنُ مالكٍ أن يَشغَلَ النَّاسَ بالغَزَوات ، حتّى تَستَنيمَ الفِتن ، وتَخلُصَ له وجوهُ النَّاس .

٢

عَبَّأَ السَّمحُ جُيوشَه ، وسارَ بها قاصِدًا فرنسا ؛ فَحاصَرَ أربُونَةَ واستولَى عليها ، وشَحنَ المدُنَ المُجاورةَ لها بالمُقاتِلة ، ثمَّ زَحَفَ صَوبَ « طلوزة » ، وكانت عاصمةَ أكتيانية ، فَنصَبَ المَنجَنيقاتِ وسائِرَ آلاتِ الحِصار ، وضَيَّقَ الخِناقَ عليها ، حتى كادَتْ تَخِرُّ ساجدةً تحت أقْدامِه .

رأى « أود » دوق أكتيانية أنَّ سقوطَ تيلوزِ (طلوزَة) في أيدى العرب ، سيُهَدِّد سلطانَه ، ويَجْعَلُ فرنسا كلَّها تحتَ رحمَتِهم ، فَراحَ يجمَعُ الجُموعَ ويحشِدُ الرِّجال ، ويثيرُ الهِمَم ؛ حتى حشدَ جَيشًا عظيما ، انطلقَ به لنجدةِ تيلوز .

أقبل « أود » بجيش يسُدُّ الفضاء ، حتى إنَّ الغُبارَ المتطايِرَ من زَحفِ أقدامِهم ، كانَ يُغطِّي عَينَ

الشَّمس ، فرأى السَّمحُ أن يجمَعَ جُنودَه ، وأن يتأهَّبَ للقِتالِ المرير ، الذى سيدورُ بينَ المسلمينَ الذينَ أجهدَهُم حِصارُ المدينة ، والجيشِ القادِمِ للذَّودِ عن أعراضِهم ، ودينِهم ، وحُرِّيتهم ، وأمنِ بلادِهِم .

وراحَ السَّمحُ يتلو : « إنْ ينصُرْكُمُ اللّهُ فَلا غَالِبَ لكم » . وبدأ القِتالُ ، ومَشى الرِّجالُ إلى الرِّجال ، ودارت معركةٌ رهيبة ، فبدا كأنَّما قد مَشَتِ الجبالُ إلى الجبال ، وراحَ السَّمحُ يُحَمِّسُ المسلمين ، ويُذَكِّرُهم بأفضَلِ ما فيهم ، ويشُدُّ على الأعداء ، ويُسرِعُ إلى صفوفِه التى يَدُبُّ فيها الوَهَن ، يَشُدُّ الأزْرَ ، ويَرتَقُ الفَتْق ، ويُبَشِّرُ الصَّابرينَ منهم بما وَعَدَهم اللّهُ من جَنّاتٍ عَرْضُها السماواتُ والأرض .

وَطَفِقَ السَّمْحُ يجُولُ فى الميدان كالأسد ، وسيفُه يقطُرُ دما ، ويحمِلُ على العَدُوِّ حمْلَ الصَّناديد ؛ وفيما

هو فى صَولَتِـه ، وجَولَتِـه ، أصابَتْـهُ طعنـة ، خـرَّ بهـا صَريعًا عن جوادِه .

٣

رأى المسلمونَ قائِدَهم مُجَدَّلا ، وهُجـومَ « أود » برجالِهِ المُستبسِلين ، فَفَـتَّ ذلـكَ فـى أعضـادِهم ، ونَكَصُوا على أعقابِهم ، وتَرَكوا قَتلاهُم فى العَـراء ؛ وقُتِلَ كثيرٌ من صناديدِ المسلمين ، وكادَ الأمرُ ينقلبُ إلى هزيمةٍ نكراء ، لولا أن تَقَدَّمَ عبدُ الرَّحمـنِ الغَـافِقِىُّ يقودُ الجيش ، ويَلُـمُّ شعْثَ المسـلمين ، ويعـودُ بهـم سالِمين إلى أُرْبونة .

وشـاعَ خبر هـذه الموقِعـة ، فَدَبَّـتِ الحماسَـةُ فـى قلوبِ أهالِى « اللاَّنفدون » و « البيرانـة » ، وهبُّـوا ليثوروا على العرب ، ويسـتعيدُوا حُرِّيَّتهـم . ولكـنَّ العَربَ كانوا مُتَحَصِّنِينَ فى أُرْبونـة ، وقـد جاءَتهم الإمداداتُ من الأندَلُـس ، فَعـادُوا يشُنُّونَ الغـاراتِ

منها على البلادِ المجاورة ؛ وراحَتْ جُيوشُهم تتقَدَّم ، وتَتَقِلُ من نَصر إلى نَصر ، فَعادَ للعربِ هيْبَتُهم ، وراحَ أهالِى البلادِ يترقَّبُونَ الفُرصةَ ليثوروا ثَورَتَهم ، ويُخرِجُوا العَربَ من ديارِهم .

وظلَّ « أود » دوق أكتيانية يتجنَّبُ القِتال ، لأنَّ غاراتِ العربِ كانت واقعةً على أطرافِ بلادِه ، ولكنّه كانَ يَخشَى إن شُغِلَ بحربِ العرب ، أن ينتهزَ شارلُ مارتِل هذه الفُرصة ، ويقتَطِعَ بعضَ أجزاءِ إمارَتِه ، ويُضيفَها إلى مملكتِه .

٤

عُيِّنَ عبدُ الرّحمنِ الغافِقيُّ واليًا للأندلس ، فى صَفَر سنة ١١٣ هجرية (أبرل سنة ٧٣١ م) وكان من زُعماءِ اليَمانِيَّة ، وكِبارِ القُوّاد . بدَأ ولايَته بزيارةِ الأقاليم ، وتنظيمِ شُئونِها ، واهتَمَّ بالجَيش ، فأنشأ فِرَقًا من البَربَر ، أسندَ قيادَتها إلى قُوّادٍ من العرب .

وكادَ الأمرُ يستتِبُّ لِعبدِ الرَّحمن ، لولا أنَّ قائِدًا من قُوَّادِ البربر ، هو عثمانُ بنُ أبى نِسعة ، وكان يحكُمُ الولاياتِ الشَّمالية ، قد أحْنَقَه توليةُ عبدِ الرَّحمن ، فقدْ عُيِّنَ واليًا قَبْلَه ، ولكن لم تَدُم ولايَتُه أكثرَ من ثلاثِ سنوات ، ثمَّ عُيِّنَ عبدُ الرَّحمن .

كان الخِلافُ يشتَجرُ بين العربِ والبربرِ منذ الفتح ؛ فالبربرُ يحِقُدونَ على العرب ، لأنَّهم كانوا يتولَّونَ المناصِبَ الرَّفيعَة ، بينَما قامَ البَربرُ بحمْلِ جُلِّ أعباء الفَتح .

فكَّرَ ابنُ أبى نِسْعَةَ فى الاستِعانةِ « بأود » أميرِ أكتيانية ، ليَشُقَّ عَصا الطَّاعةِ على عبدِ الرَّحمن ، عسى أن تَعودَ إليه إمارَةُ الأندلس ، فسعَى إليه .

ورَحَّبَ « أود » بهذا التَّقرُّب ، فقَدْ كانَ يَخشَى جيوشَ شارل مارتل ، ورأى فى مُهادَنةِ العربِ فُرصةً للتَّفرُّغِ لشارل .

وتزوَّجَ ابنُ أبى نِسْعَةَ ابنة « أود » فوَثَّقَ ذلك عُرَا التّحالُفِ بينَ الدّوقِ وابنِ أبى نِسعَة . وارتابَ عبدُ الرّحمنِ فى أمرِ عثمانَ بنِ أبى نِسعَة ، فَبَعَثَ جَيشًا إلى الشَّمال ، وما إن سمِعَ عثمانُ بنبأ هذا الجيش ، حتّى فرَّ من « بويكارد » على البرينيه ، إلى شُعَبِ الجبالِ الدّاخليَّة ؛ فقاتَله قائدُ عبدِ الرّحمن ، وراحَ يقتَفِى أَثَرَه من صَخْرَةٍ إلى صَخْرَة ، حتّى قَتَلَه وهو يُدافِعُ عن نفسِه ، وأُسِرَتْ زَوجَتُه لاميجيا ، وأُرسِلَتْ إلى دِمشق .

رأى « أود » ما حلَّ بحَليفِه وصِهْرِه ، فراحَ يجمَعُ جُموعَه ، ويتأهَّبُ للنّزال ، ورأى عبدُ الرحمن ذلك التأهُّب ، فجَمَعَ جُيوشَه وسارَ نحوَ الشَّمال ، ليَثأرَ لِمَقْتَلِ السَّمح ، ولِيَفتَحَ فرنسا ، ويجتاحَ أورُبّا .

انطلَقَ عبدُ الرحمن إلى الشَّمال ، فى جيش لم يجمَع المسلمونَ مثلَه ، ودَخلَ فرنسا فى سنة ٨٣٢ هـ ،

وزحفَ إلى مدينةِ « آرل » ، الواقِعةِ على نهرِ الرُّون ، ونَشِبَتْ معركةٌ رهِيبة ، يشيبُ من هَولِها الوَلِيد ، انتهَتْ بانتِصارِ المُسلمين ، وتقهقُرِ « أود » وجنودِه .

وعَبَرَ عبدُ الرَّحمنِ نهر الجارون ، وانتشَرَ في السَّهل الممتَدِّ بينَ الرُّونِ شَرقًا ، وخليج وسْقُونيا غربا ، وبين اللّوارِ شَمالاً ، ونَهرِ الجارُونِ جنوبا . وحاوَلَ « أود » أن يَقِفَ في سبيلِ ذلك السَّيلِ المُتَدَفِّق ، ولكنّه هُزِمَ شرَّ هزِيمة ، وفَرَّ في نَفَر من أصحابه إلى الشَّمال .

وقَفَلَ عبدُ الرحمن عائِدا نحو الرُّون ، واختَرَقتِ الجيوشُ الإسلاميةُ بَرجُونِيا ، واستَولَت على لِيون وبيزانسون ؛ وبَعثَ سراياه فبلغَتْ سانس ، التي لا يفصِلُ بينها وبين باريس إلا مِائة ميل فقط .

توغَّلَتِ الجيوش الإسلاميَّةُ ألفَ ميل ، من جبل

طارقٍ حتى شُطْئانِ اللُّوار ، وتفرَّقتْ جيوشُ « أود » أيدى سباً ، وهامَ أودُ على وجهه ، ولم يجدْ أمامَه إلاَّ عَدُوَّه القديم « شارلْ مارتلْ » ، فانطلقَ إليه ، يلتمِسُ منه النَّجدَةَ والعَون .

٥

كان شارل مارتِلْ قد جمعَ جيشًا ضخمًا من الفِرنج ، ومن العَشائرِ الجرمانيَّة والعصاباتِ المرتزقَةِ فيما وراءَ الرِّين ، وكان الجُندُ نصفَ عُراة ، يتَّشِحُونَ بجلودِ الذِّئاب ، وتتَهَدَّلُ شعورُهم فوقَ أكتافِهم العارية .

سارَ شارلْ مارتِلْ فى جيشِه الجَرَّار نحوَ الجنوب ، لُملاقاةِ عبد الرَّحمن ، الذى كان يُلْقِى الرُّعبَ فى قلوبِ أهلِ المُدنِ التى ينزِلُ بها . ولم يسمَعْ عبدُ الرَّحمنِ بخروجِ شارلِ لقِتالِه ، فلمْ يتأهَّبْ للمعركَةِ الفاصِلةِ بين العرب والفِرنج ، بينَ الشَّرقِ والغرب .

انتهى الجيشُ الإسلاميُّ فى زحفِه إلى السَّهل المُمتدّ بينَ مدينتى بُواتِييه وتُور ، واستَولَى المسلمونَ على بُواتييه ، ثم هجمُوا على تُور ، الواقِعةِ على ضِفّةِ اللُّوارِ اليُسرَى ، وسَرعانَ ما كانت مِلكَ يمينهم ، كلِمتُهم فيها هى العُليا .

وبلَغَ شارلْ مارتِل نهرَ اللُّوار ، دون أن يشعُرَ المسلمون بمقْدِمه ، فلمّا همَّ عبدُ الرّحمن أن يقتحِمَ اللُّوار ؛ لمُلاقاةِ أعدائِه ، على الضّفّةِ اليُمنَى ، إذا بجيشِ شارل قدْ أقبَلَ بجُموعِه الجَرّارَة ، فلم يجدْ عبدُ الرّحمن بُدًّا من العَودةِ إلى السَّهل ، والتَأهُّبِ للمَوقِعة ، التى أرغَمَه شارل على خَوض غِمارِها .

عبَرَ شارْل اللُّوارَ غربَ تُور ، وعسكَرَ بجيشِه إلى يسارِ الجَيش الإسلاميّ ، الذى كانَ يغُصُّ بالسَّبىِ والأَسرَى والغَنائِم وثرَواتِ فرنسا ، وقَدّرَ عبدالرحمنِ خطرَ هذه الغَنائم على رجالِ جيشِه ،

فحاوَلَ عَبَثًا أن يُقنِعَهُم بالتّخلّصِ من بعضِها ، ولم يشتَدَّ في أمره خشيةَ التّمَرُّدِ والعِصيان .

واشتَعَلتْ نِيرانُ الحرب ، وتقارَعتِ السُّيوف ، ومشى الرِّجالُ إلى الرِّجال مَشْيَ الوُعُول ، وارتَوَتْ سهولُ فرنسا بالدِّماء ، وانقضَتْ ثمانيةُ أيّامٍ ورحى الحَربِ دائِرة ، والأرواحُ تُزهَق ، والأَجسادُ تَهوِي عن الخُيول ، وأنّاتُ الجَرحَى تمتزِجُ بصهيلِ الخُيول ، وصَليلِ السُّيوف ، وأقبَلَ اليومُ التَّاسِعُ والقِتالُ دائر ، كلٌّ من الجَيشَينِ ثابِتٌ في مكانِه لا يزول ، وحَمِيَ وَطِيسُ القتال ، ودبَّ الوَهَنُ في صفوفِ الفِرنج ، وكادَ النَّصرُ يلُوحُ للمسلمين ، ولكن حَدَثَ أن فَتَحَ الفِرنجُ ثَغْرَةً في الجيش الإِسلاميّ ، واندَفَعُوا منها صَوبَ مُعسكَرِ الغنائم .

وارتَفعَت صَيحَةٌ في الميدان :

— ألا إنَّ معسكَرَ الغنائِم قد سقَطَ في أيدِي الأعداء .

فتركتْ قوّةٌ كبيرةٌ من فُرسانِ المسلمين المعركة ، وتقهْقَرَتْ للدِّفاع عن الغنائِم ، وتَخليصِها من يدِ الأعداء ، وكأنّما قدْ نَسِيَ المسلمونَ ما وقَعَ يوم أُحُدٍ لإخوانِهم ، الّذينَ كانوا مع النّبيِّ الكريم ، يومَ زالُوا عن أماكِنِهم ، لِيشتركُوا في الغَنيمة ، فَدارَت الدائِرةُ عليهم ، وانقَلَبَ نصرُهم هزيمةً نَكراء .

وهُرِعَ كثيرٌ من الجُندِ للدِّفاع عن الغَنائِم ، فوَقَعَ الاضطِّرابُ في صُفوفِ المسلمين ، وراحَ عبدُ الرحمن يحاولُ أن يُعيدَ إلى جيشِه النِّظام ، ولكن هَيهات ، شغَلَتهم الدُّنيا عمَّا هم فيه ، فإذا بِسهمٍ من سهامِ الأعداءِ يُصِيبُه ، فَيسقُط مُجدَّلا ، يَخبطُ في دمائِه .

رأى المسلمونَ مقتلَ قائِدِهم ، فَدَبَّ الذُّعرُ في صفوفهم ، وراحت سيوفُ الفِرنج تعملُ في رِقابهم ، ولكنهم صَمَدُوا حتى أرخَى اللّيلُ سُدُولَه ، وافترَقَ الجيشان ، ينتظِرانِ طلوعَ النّهار ، وفي

الليل ، انسحَبَ المسلمون ، فلم يعُدْ هناكَ أمَلٌ فى النّصر .

وفى صَبيحةِ اليومِ التّالِى ، رأى أود وشارْل مارتِل ، الهُدوءَ المسيطِرَ على المعسكر الإسلامىّ ، فبَعثَ رُسُلَه ، فأخبَرُوه أنّ العربَ قد انسحَبُوا ، تارِكينَ غَنائِمَهم وجَرحَاهم ، الذين لم يستطيعُوا الانسحاب ، وخشِىَ شارل أن يكونَ ذلك كَمِينا ، فلم يتقَدَّمْ خلفَ العربِ المنسحِبين ، بلِ اكتفَى بالعودة ، بعدَ أن انتَهت معركةُ « بلاطُ الشُّهداء » ، بوقفِ سيلِ العربِ المُتَدَفِّق ، وإنقاذِ أوربَّا من الاحتلال الإسلامىّ ، وحُطِّمَ أمَلُ المسلمينَ فى سِيادةِ العالَمِ كلِّه .